نظرة عن العيون والجواسيس في بلاد المغرب الإسلامي
من ق 3-5هـ /10-12م

د/ حيمي عبد الحفيظ، جامعة ابن خلدون – تيارت

ملخص المقال:

تقدم هده الدراسة لمحة عن تطور نظام الجوسسة في بلاد المغرب الإسلامي خلال عصر الفاطميين والمرابطين والموحدين، كما تحاول تسليط الضوء على خطة صاحب الخبر والمهام التي كانت تسند له والأساليب التي كان يقوم بها لجمع الأخبار وكيف كانت تصل تلك الأخبار إلى الولاة والأمراء، من خلال مجموعة من المصادر التاريخية، وأن لم تتضح معالم نظام الجوسسة لهذه المرحلة فإني سأحاول أن أقدم لمحة عنها، فهل ستسمح المادة المصدرية لتوضيحها ؟

تمهيد:

تعتبر الجوسسة من الأساليب التي استخدمت منذ العصور القديمة، والتي تستهدف جمع المعلومات واستقاء أخبار الخصوم والأعداء على المستوى الخارجي، وتتبع أخبار الخارجين والمتمردين على المستوى الداخلي، فقد عرفها المسلمون منذ تأسيس الدولة الإسلامية واتضحت معالم هذه الخطة في العصر الأموي عندما توسعت رقعة الدولة الإسلامية وكثر الأعداء و وانتشرت الفتوحات شرقا وغربا، وعرفت هذه الخطة في المصادر تارة بمصطلح العيون، وتارة ب الجواسيس وأحيانا بصاحب الخبر، سأحاول أن اسلط الضوء على هذه الخطة من خلال بعض النصوص التي وردت في المصادر على قلتها لهذه الخطة منذ العصر الفاطمي مرورا بعصر المرابطين والموحدين.

1 - صاحب الخبر عند الفاطميين في بلاد المغرب:

إن صاحب الخبر من الوظائف التي ورد ذكرها في كثير من النصوص التي تعود إلى العصر الفاطمي، ويفهم منها أن صاحب هذه الوظيفة كان مكلفا بنقل الأخبار إلى الإمام أو من ينوب عنه، وبخاصة تلك الأخبار التي تمس بالأمن العام ويخشى منها على مصالح الدولة.

وكان الفاطميون ببلاد المغرب يتخذون العيون وأصحاب الأخبار لجمع المعلومات عن المتابعين من قبل الجهات السياسية، من أجل معرفة كل التفاصيل والدقائق المتعلقة بهم ومعرفتهم في حلهم وترحالهم، وكان لهذه الخطة أهمية كبرى في تثبيت دعائم الدولة الفاطمية والحفاظ على حياة الأئمة الفاطميين، بالكشف عن المناوئين لهم والمخالفين لمذهبهم.

ولم يكتف حكام الدولة الفاطمية بالاعتماد على ديوان البريد في جمع الأخبار، وإنما اعتمدوا على أشخاص خارج البريد للقيام بالمهام الموكلة لهم، كما كان لخطة صاحب الخبر دور مهم في مراقبة قبائل البربر الثائرة عليهم والخارجة عن طاعتهم، وكان لعيون الفاطميين دور في نشر الدعوة الإسماعلية في الخارج كمصر والأندلس ومعرفة أخبارها رغبة في تحقيق توسعاتهم السياسية مستقبلا.

لقد ذكر الخشني، بأن الفقيه أحمد بن موسى التمار وأخوه دارت عليهما الدائرة بقوله: "دارت على أحمد بن موسى وعلى أخيه دائرة من مغرم فادح، ثم من بعد ذلك دارت عليه في أخيه محمد دائرة عظيمة ، وذلك أن أخاه محمد بن موسى دخل في جماعة رجال القيروان على عبيد الله في سلام عيد، فاندفع: يصف سوء حال الرعية، وما نزل بهم: من ظلم العمال، فوقع ذلك من عبيد الله موقع الكراهية واتصل ذلك بمن أسماه - : من أهل القيروان - فعقدوا عليه شهادة عند صاحب الخبر ورفعها : على يد محمد البغدادي إلى عبيد الله، فأمر بضربه مائتي سوط، فضرب ضربا معنيا فمات رحمه الله" [1].

نقرأ من خلال هذا النص بأن صاحب الخبر على عهد الدولة الفاطمية لم تكن مهمته جمع الأخبار، وتبليغها إلى الإمام، وإنما التورط في العمل على توجيه التهم للمعارضين أو الذين يتهمون عمال الدولة بالظلم، والبحث عن شهود الزور قصد القضاء على كل من تسول له نفسه تجاوز ما يريده إمام الدولة وأن الأئمة لم يكن يعجبه ممن يصدح بالحق ويكشف جور وظلم العمال، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على مدى التسلط والاستبداد الذي كانت تعانيه الرعية في بلاد المغرب على عهد الفاطميين، وكانوا يستخدمون القوة المفرطة في إسكات المعارضة، إضافة إلى ذلك نستنتج بأن خطة صاحب الخبر كان صاحبها على اتصال مباشر مع أئمة الفاطميين، أو مع رجال مخلصين للدولة لهم قرب منهم أمثال محمد البغدادي.

ولقد كان صاحب الخبر من الأشخاص المقربين من الخليفة وموضع ثقته لأهمية المنصب الذي يتطلب الصدق في ما ينقله من أخبار، فهي خطة تحتاج إلى قدر كبير من الأمانة والدقة ممن يتولاها، وعلى قدر كبير من العلم، فقد ذكر القاضي النعمان بن محمد الذي عمل في خدمة الإمامين المهدي والقائم إذ يقول: " وخدمت المهدي بالله (ص) من آخر عمره تسع سنين وشهورا وأياما والإمام القائم بأمر الله من بعده (ص) أيام حياته في إنهاء أخبار الحضرة إليهما في كل يوم طول تلك المدة إلى أقل الأيام " [2] .

وتظهر أهمية صاحب الخبر على عهد الفاطميين، عندما استدعى المعز لدين الله يوسف بن زيري الصنهاجي ليعرض عليه إسناد ولاية المغرب إليه قبل رحيله إلى مصر وبعد إعلان زيري موافقته قال له: "بشريطه تولي القضاء والخراج لمن تراه وتختاره، والخبر لمن تثق به وتجعلني أنا قائما بين أيديهم، فمن استعصى عليهم أمروني به حتى أعمل فيه ما يجب، ويكون الأمر لهم وأنا خادم بين ذلك." [3].

ويبدوا أن عيون وأصحاب الأخبار أيام الفاطميين كان لها انتشار واسع في الداخل والخارج، يخفون أنفسهم ويتجسسون على الناس، وبخاصة على ذوي الشأن من وجهاء القبائل والعلماء وعلية القوم،لأنهم هم في الغالب الذين يحركون العامة ضد العمال والأئمة، فقد ورد في سيرة جوذر بأنه بلغه الخبر بأنه كان يوجد بالمسيلة رجل يدعى عثمان بن أمين، كان يكاتب بني أمية وأنهم يرعون ذمامه هناك ويقضون حوائجه، وأنه يقدح في الدولة، ولم يكن العامل جعفر بن على أخذ على يده ولا حجزه عن أمر يوجب الإشارة إليه بذلك[4] .

إن الأوضاع السياسية المعقدة التي شهدتها بلاد المغرب أيام الفاطميين دفعهم إلى توخي الصرامة في تنظيم سلطة الشرطة ، حتى اضطر الخليفة الفاطمي الأول إلى إنشاء مصلحة خاصة بالبحث والتحري تعرف بديوان الكشف فقد ذكر صاحب البيان المغرب أنه : " وفي سنة 298هـ ، تجول أبو عبد الله الشيعي في بلاد البربر وحارب صدينة وزناتة. وقتل الرجال، وأخذ الأموال وسبى الذرية وأحرق بعض المدن بالنار، وكتب

بالفتوحات إلى عبيد الله، فقرأت كتبه على الناس، وفيها ولي أبو جعفر البغدادي ديوان الكشف، مشتركا مع عمران بن أبي خالد بن أبي سلام"[5].

ورغم أن المصادر لا تذكر مهام ديوان الكشف لكن من الممكن أن يكون له علاقة بصاحب الخبر، فهي بمثابة مؤسسة تتلقى الأخبار من المخبرين في جميع أصقاع الدولة خيرها وشرها، ويشرع في التحري عنها وإعلام الجهات المختصة وبالدرجة الأولى الإمام لاتخاذ الإجراءات اللازمة للمواجهة، إذا كان الأمر يتعلق بالفتن والثورات، أو المتابعة والاعتقال إذا كان الأمر يتعلق بأشخاص يحرضون ضد الدولة أو يقدحون في المذهب الإسماعيلي.

ومن المعتقد أن صاحب الخبر يحتاج إلى أعوان ومساعدين حتى يتمكن من أداء وظيفته على الوجه الأكمل، فليس من المعقول أن يتولى نقل الأخبار إلى الإمام أو الخليفة شخص واحد، فلا بد من وجود جهاز من أصحاب الأخبار المنتشرين في كل مكان داخل الدولة وخارجها، وأنهم كانوا يملكون وسائل اتصال سريعة لنقل الأخبار في حينها، فقد ذكر المقريزي ذلك أيام الحاكم في مصر بقوله:"ويقال أن عقيل صاحب الخبر كان يحمل الرقاع بالخبر إلى القائد غبن ليوصلها إلى الحاكم وهي مختومة " [6].

إن خطة صاحب الخبر، من أهم الخطط التي أسهمت في ضبط الأمن من خلال نقل الأخبار في حينها، وما من شك بان للمعلومات والأخبار دور بارز وأساسي في اتخاذ القرارات المناسبة، والتأهب بحشد كل الوسائل للتصدي للخطر سواء كان الأمر يتعلق بالتحديات الداخلية كالفتن والثورات التي تنتفض ضد الدولة أو تلك التحديات الخارجية التي تهدد أمن الدولة بشكل عام.

2 - العيون والجواسيس عند المرابطين:

إن العيون والجواسيس، أو أصحاب الخبر، أو ما يصطلح عليه اليوم بالاستخبارات العسكرية، وسيلة قديمة استخدمت لغرض جمع المعلومات عن الأعداء، والتي بموجبها أو على أساسها يتم اتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة الخصم، وقد عرف هذا الأسلوب في المواجهات العسكرية، بحيث كانوا يرسلون العيون والجواسيس إلى الأمصار للاختلاط بأهلها والاطلاع على أحوالهم وما يجري بينهم، وكان لذلك أثر بارز في نجاح الفتوحات الإسلامية، على الرغم من صعوبة نقل المعلومات في حينها كما كان الحال في العصر الوسيط [7] .

لقد قام المرابطين بتطوير الجوسسة، ببث عيونهم في كل مكان وبخاصة أيام جهادهم في الأندلس، بحيث يذكر صاحب الاستقصا ذلك قائلا: " ثمَّ جَاءَ بِاللَّيْلِ فارسان من طلائع الْمُعْتَمد يخبران أَنَّهُمَا أشرفا على محلّة الأذفونش وسمعا ضوضاء الْجَيْش وخشخشة السِّلَاح ثمَّ تلاحق بَقِيَّة الطَّلَائِع محققين لتحرك الأذفونش ثمَّ جَاءَت الجواسيس من دَاخل محلتهم تَقول استرقنا السّمع فسمعنا الأذفونش يَقُول لأَصْحَابه ابْن عباد مسعر هَذِه الحروب وَهَؤُلَاء الصحراويون وَإِن كَانُوا أهل حفاظ وَذَوي بصائر فِي الْحَرْب فهم غير عارفين بهَذِهِ الْبِلَاد وَإِنَّمَا قادهم ابْن عباد ... " [8].

ويذكر عبد الواحد المراكشي قصة تفصح عن وجود الجوسسة عند المرابطين في الأندلس قائلا: "كان له عَيْنٌ بقرمونة يكتب له بأخبار البربر؛ بلغ من لطف حيلة المعتضد وقد أراد أن يكتب إلى ذلك الرجل الذي جعله عينًا له بقرمونة كتابًا في بعض أمره..." [9].

وعندما أصبح تاشفين بن علي نائبا عن والده على الأندلس قبل أن يصبح ملكا، قام بأعمال جليلة، بحيث قام بتعزيز التحصينات بالثغور، وانشأ شبكة من الجواسيس لمراقبة وتتبع أخبار الأعداء، ويشير إلى ذلك صاحب الحلل الموشية قائلا: "وأذكى العيون على العدو وآثر الجند ..." [10].

ويوسف بن تشفين عندما أحس بالخديعة من ألفونسوا السادس بتحديد موعد لمعركة الزلاقة14 رجب 479هـ (26 أكتوبر 1086 م) [11]، عمل على جمع المعلومات المتعلقة بعدوه حتى لا يغامر بجيشه فيقول: " وجعل على عسكر العدو عيونا على خيل سبق يأتونه بأخبارهم وما يرونه من حركاتهم فلم يزل كذلك إلى الفجر من يوم الجمعة" [12].

وكان جيش المرابطين يستفيد من العناصر الفارة من جيش العدو إليه، بحيث يستفيد من الأخبار التي بحوزتهم، ويعتبرهم مصدرا للمعلومات المرتبطة بأعدائه، وقد حدث ذلك في غزوة إقليش عندا قام الجيش المرابطي بمحاصرة المدينة، والتحق من كان فيها من المسلمين المدجنين به، فقاموا بتقديم معلومات عن المدينة، وقد حاول النصارى مباغتة المرابطين بتطويق مؤخرة الجيش، ولكن جنديا مسلما كان في صفوفهم أخبر المرابطين بخطة العدو، فاستعدوا لذلك وأفشلوا خطتهم [13].

إن العيون التي كان يرسلها قادة الحكم من المرابطين في الأندلس تتعلق بما يطلق عليه الاستخبارات العسكرية، والتي من مهامها جمع المعلومات عن الأعداء وتقديمها إلى القادة العسكريين الذين يقومون بتحليلها، وعلى أساسها يتم إعداد الخطط العسكرية والعمل على اتخاذ كل التدابير التي من شأنها أن تضمن الانتصارات في المعارك كما كان الحال في معركة الزلاقة.

وأحيانا كان المرابطون يستعينون بالعيون والجواسيس للقيام باغتيالات في صفوف أعدائهم، بحيث يورد النويري، بأن يوسف بن تشفين أراد قتل سيد قبيلة كزولة محمد بن إبراهيم الكزولي المتحصن بجبل شامخ منيع مع قبيلته الكبيرة، فقام بإرسال جاسوس بزي حجام ومعه مشاريط مسمومة بغية قتله، ولكن أمره انكشف، وأعاد يوسف المرة ثانية، وبغث عميل بزي تاجر يبيع العسل، وكان العسل مسموما، وانكشف أمره فكتب محمد ابن إبراهيم كتابا إلى يوسف قائلا" إنك أردت قتلي بكل سبب فلم يظفرك الله، وكشف لي عن سيرتك وقد أعطاك الله المغرب بأسره، ولم يعطني إلا هذا الجبل، وهو في بلادك كالشامة البيضاء في الثور الأسود، فلم تقنع بما أعطاك الله تعالى..."[14].

وقد أورد صاحب كتاب سراج الملوك حادثة أيام المقتدر يبين من خلالها دور الجوسسة في تصفية الأعداء ببلد طرطوشة قائلا: "فدعا المقتدر رجلاً من المسلمين لم يكن في الثغور أعرفمنه في الحرب يسمى سعدادة فقال له المقتدر: كيف ترى هذا اليوم؟ فقال سعدادة: هذا يوم أسود، ولكن بقيت لي حيلة فذهب سعدادة وكان زيه زي الروم وكلامه كلامهم لمجاورتهم وكثرة مخالطتهم، فانغمس في عسكر الكفار ثم قصد إلى الطاغية روميلف ألفاه شاكاً في السلاح مكفتاً في الحديد، لا يظهر منه إلا عيناه فجعل يتحيله ويرتصد غرته إلى أن أمكنته الفرصة، فحمل عليه وطعنه في عينه فخر صريعاً لليدين والفم، ثم جعل ينادي بلسان الروم: قتل السلطان يا معشر الروم فشاع قتله في العسكر فتجادلوا وولوا منهزمين، وكان الفتح بإذن الله تعالى." [15].

إن النص الذي أورده الطرطوشي حول نشر العيون في وسط جيش العدو إبان الحكم المرابطي في الأندلس، يبين ما مدى ما وصل إليه التطور في مجال الاستخبارات العسكريةليس فقط من أجل جمع المعلومات عن العدو، ولكن استغلال ذوي الخبرة ومن يتقنون لغة العدو في هذا المجال، أو تجنيد بعض من هم في صفوف جيش العدو بهدف القيام باغتيالات لبعض القادة ، ونشر ذلك وإشاعته من أجل كسب رهان الحرب النفسية.

ونظرا لما له من أهمية في بث العيون، ونشر الجواسيس من أجل معرفة الخصم وإعداد العدة بما يناسب حجمه وتحركاته وطبيعة الأسلحة المستخدمة، وتعداد الجيش والطريق الذي يسلكه والأماكن الإستراتيجية التي يستحوذ عليها يقول الطرطوشي: "اعلموا أن من أحزم مكائد الحرب إذكاء العيون واستطلاع الأخبار وإفشاء الغلبة، وإظهار السرور وإبانة الحذر والاحتراس من العدو "[16].

إن كثيرا من الانتصارات العسكرية التي كان يحققها المرابطون، تعود إلى استخدام الجوسسة في معسكرات أعدائهم بحيث جاء في الوثيقة الأولى من وثائق المرابطين عندما اسقطوا بعض القلاع في الثغر الأعلى الأندلسي ما يلي: "وأرسل الله تعالى من جنده فتى كانوا قد سبوه صغيرا، واقتنوه أسيرا، ولله تعالى فيه خبأه أعدها من عنده وبعثها لجنده، ونزع الفتى إلينا من معسكرهم منبئا بهم دالا عليهم، وكاشفا بهم عن النبأ العظيم ومطلعا منهم على المقعد المقيم، فعند ذلك ثارت ثائرتنا، ودارت على مركز التوفيق دائرتنا "[17].

لقد تعرض حسين مؤنس إلى شرح لفظ" نزع " فقال: " أن النازع في الاصطلاح الأندلسي هو الجندي الذي يندس في جيش الأعداء أو يدخل منهم متنكرا في زيهم حتى يتعرف أخبارهم أو يثبط هممهم ثم ينزع إلى قومه ساعة الحاجة إليه، أو بعد سقوط الحصن وكان في الأنظمة الحربية الأندلسية ديوان خاص لهؤلاء يعرف (بديوان النزاع)"[18].

إن النصوص التي توفرت لدي عن الجواسيس والعيون عند المرابطين كلها مرتبطة بالمرحلة الأندلسية، ولم أعثر على نص مرتبط بالفترة المغربية، ويحتمل أن مسألة الجوسسة كانت سمة معهودة في الغرب الإسلامي بشكل عام، ويحتمل استفادة المرابطين من الفنون والأساليب القتالية ، واستخدام الجوسسة العسكرية لطبيعة الصراع العسكري الذي استفاد منه الأندلسيين منذ الفتح إلى أيام المرابطين.

3 - الجواسيس والعيون عند الموحدين:

عرف الموحدون هم بدورهم الجوسسة ،كما عرفها غيرهم من قبل سواء عند الفاطميين أو المرابطين أو حتى في صدر الإسلام، و لهذه الخطة دور بارز في جمع الأخبار عن العدو عن طريق بث العيون في صفوف الأعداء لمعرفة كل ما يتصل بالخصم من حيث الاستعداد المادي والمعنوي، بالإضافة إلى البحث عن نقاط القوة والضعف، هذا إذا كان الأمر يتعلق بأعداء الخارج،وللعيون دور كذلك في تتبع الخارجين عن الدولة أو المدعومين من جهات خارجية.

استطاع الموحدون أن يقوموا بإرساء نظام للجوسسة وبخاصة أثناء فتوحاتهم، لتمهيد الطريق أمامهم في إحراز الانتصارات على المناطق التي يسعون لفتحها، فقد ذكر ابن عذارى المراكشي بان أبا يوسف المنصور عندما تحرك لغزو الجزائر ومليانة، وعندما اقترب الجيش منها أرسلوا كتبا لسائر البلاد المغلوب عليها يخبرونهم بالأمن والأمان والصفح والإحسان [19].

ولم يكتف أبو يوسف المنصور في غزواته بإرسال المكاتبات إلى حكام المناطق التي يريد غزوها، وإنما كان يدس جواسيسهن ويبث عيونه في المناطق التي يسعى لفتحها فقد أورد ابن عذارى نصا يشير فيه إلى ذلك قائلا: " ولما دنت من البلاد دسوا بالكتب جواسيس دخلوا بها ليلا إلى البلاد واجتمعوا بها مع من يوثق به للأمن فلما وقفوا عليها ورأوا أنهم قد أمنوا غوائل العذاب، وأن العفو والرحمة لهم مفتحة الأبواب، وثبوا على من كان عندهم من الأعداء ..." [20].

وكانت الجاسوسية عند الموحدين تقوم بها مجموعة مختصة في الأمر ولها دراية بالمسالك و لها تجربة ودربة، يصطحبون الجيش، ويمهدون له الطريق قبل دخولهم أية منطقة أو قبل القيام بأية مواجهة، وبخاصة إذا تعلق الأمر بالحركات المناوئة للموحدين، فقد ذكر بأنه عندما ظهرت معارضة ببلاد الزاب قام المنصور بمخاطبة صاحب بجاية للتصدي لها وقبل وصوله إلى المنطقة قيل أنه: " ودس السيد أثناء ذلك عيونا يتجسسون أخبار الأشل المذكور ومكان استقراره ومن استند من إنجاد القبائل في جواره، فتفرقوا في تلك الجهات وضرب لهم بالإياب إلى ميقات وبقي مع مجموع العرب يراودهم في التمكين من الأشل المذكور، ويعدهم بالثواب على ذلك مع الأجر المذخور..." [21].

وكان العيون يقدمون تقريرا مفصلا عن المبحوث عنه، بتعيين مكان تواجده ومن يقف إلى جانبه ، ومعرفة حتى لباسه ومأكله وشرابه وسلاحه وعدته وعتاده، فمما ذكر عن صاحب الزاب الخارج عن طاعة الموحدين: " وفي أثناء ذلك قفلت ثقات السيد الموجهون بخبر الأشل وتعيين مكانه وبصفته والوقوف على عيانه وكيف يختص أحد الرسل حتى يتوصل إليه وهو في مجلسه مع هيئته من لبس ثياب فاخرة معتم بعمامة خضراء وسيف محلى موضوع بين يديه وقد طاف به قوم من شيعته وهو يحدثهم بلسان حصري، ولما استوفى السيد ما قص الرسل من أخباره وعلم موضع استقراره..." [22].

4 - خطة الرقاص عند الموحدين:

ويبدوا أن أصحاب الأخبار لم تكن مهمتهم سوى جمع المعلومات، وتسلم إلى هيئة أخرى تنقلها إلى الجهات المعنية سواء كان قائد الجيش ، أو إلى السلطان مباشرة، فقد تعرضت المصادر التاريخية إلى ذكر خطة الرقاص[23] ، وجمعها رقاصون، كانت مهمتهم نقل الأخبار وكانت لهذه الخطة أهمية كبيرة ومكانة راقية، لارتباطها بمهمة كبيرة وهي نقل الأخبار والأوامر من السلطان إلى والولاة، أو إلى جميع موظفي الموحدين من طلبة وحفاظ ومشرفين، وبذلك كان الرقاص يعتبر همزة وصلبين الحاكم ولاته على الأقاليم والعكس [24]، فقد ذكر صاحب كتاب المن بالإمامة بتقديم جواب من قبل الأستاذ أبو العباس ابن سيد المالقي فقال: "ونهض الرقاص بالجواب وبهذا الشعر وطال أمد السفر في الورود والصدر ..." [25].

يبدوا أن خطة الرقاصين، كان ينتقى لها الأقوياء، ويتلقون تدريبا على الركض والعدو، وكان فيهم الرقاص العادي، ورقاص الشرط، وهذا الأخير هو المكلف بنقل الأخبار المهمة والمستعجلة مستخدما الخيل والجياد بمنتهى السرعة وكان يجد في كل محطة على الطريق حصانا مسرجا يمتطيه [26].

ولقد حددت بعض وثائق الموحدين واجبات ومهام الرقاصين تحديدا دقيقا حتى لا يسيئوا استعمال نفوذهم وسلطتهم، بحيث ورد في ظهير لعبد المؤمن الموحدي مؤرخ في سنة 543هـ بهذا الشأن: "وتخيروا

لرسائلكم ارسالا ، وانتقوا من أهل المقدرة على ذلك والثقة رجالا وادفعوا إليهم زادا يقوم بهم في المجيء والانصراف، ويقطع شأنهم في التكليف والإلحاق وارسموا لهم أياما معروفة العدد معلومة الأمد لينتهوا بها إلى مواقف رسائلهم ويوزعوها على مسافات مراحلهم وحذورهم من تكليف أحد من الناس ولو مثقال ذرة ..." [27].

ويمكن أن نستخلص من النصوص التي تناولت خطة الرقاصة، بأن بعض من كان يتولاها ، وبخاصة على عهد عبد المؤمن، استغلوا هذا المنصب لأهميته في الدولة في التعدي على الناس وتكليفهم أكثر مما يطيقونه عند مرورهم على شكل مجموعات وقوافل عبر المسالك، أو دخولهم للمدن التي تقع على الطريق الذي يسلكونه، فيكلفون الناس للحصول على الطعام بغير وجه حق، فقد أشار إلى ذلك عبد المؤمن في رسالته التي وجهها إلى ولاته سنة 543هـ (1148م) والتي يرسم فيها سياسته في الدولة ومما ورد فيها ما يخص الرقاصين مايلي: "وإن ممن يسعى في نوع من أنواع الفساد ويستصحب الإضرار بالمسلمين في الإصدار والإراد هؤلاء الرقاصين الذين يردون بالكتب ويصدرون ويمشون فيما بيننا وبينكم وينفرون فإنه ذكر لنا أنهم يأخذون الناس بالنظر في كلفهم ويلزمونهم في زادهم من كل موضع وعلفهم وهذا فعل كل فرقة منهم في سيرها..." [28].

ويلاحظ أن الرقاصين لم يتوقف أمرهم بتكليف الناس ما لا يطيقون والتعدي على أموالهم بحكم منصبهم، بل تعدى ذلك إلى العبث بالمخازن، وأخذ ما يرغبون فيه ، فقد اتضح ذلك من خلال الرسالة التي بعثها الخليفة يوسف إلى ولاته قائلا: "يفعلون في أموال الناس ما تقدم ذكره وشرح مكره وتمتد أيديهم إلى المخازن هنالك فيعيثون فيها ويتحكمون ويجرؤون في التعدي عليها ملء شأوهم وأنفسهم يظلمون ..." [29].

ومن النصوص السابقة نستنتج أن فئة الرقاصين كانوا يمثلون هيئة تشرف على نقل الأخبار ويسيرون في جماعات، وكان لهم نفوذ سياسي كبير في وسط العامة وحتى عند بقية الموظفين في الدولة، لأنهم كانوا يفرضون أنفسهم على الناس، ويستحلون لأنفسهم الحصول عل الطعام على حساب الرعية وهذا فيه إجحاف وتعد على حقوق الناس .

ونتيجة هذا الفساد الذي استشرى في أوساط الموظفين في الرقاصة قام الخليفة برسم قانون لمواجهة هذا الانحراف ووضع حد لهذه الظاهرة فقال: " فسارعوا وفقكم الله - إلى حسم هذه العلة من أصلها، وبادروا إلى قطع تلك العادة الذميمة وفصلها، وتخيروا لرسائلكم إرسالا وانتقوا من أهل المقدرة على ذلك والثقة رجالا، وادفعوا إليهم زادا يقوم بهم في المجيء والانصراف، ويقطع شأنهم عن التكليف والإلحاف " [30].

وقام الخليفة بإصدار ظهير ينظم خطة الرقاصة بضبط تواقيتهم وأيام مجيئهم وانصرافهم، وان توزع الأيام المحددة لهم في تأدية مهمتهم حسب المراحل والمسافات، ويكون هذا بمثابة أمر بمهمة معلومة الأيام مضبوطة الزمان فقال:" وارسموا لهم أياما معروفة العدد معلومة الأمد، لينتهو بها إلى مواقف رسائلهم، ويوزعوها على مسافات مراحلهم وحذروه ممن تكليف أحد من الناس ولو مثقال ذرة، وأوعدوا من تسبب منهم إلى مسلم بمساءة أو مضرة والله المستعان على دفع أسباب الجور ونستعيذ به سبحانه من الخور "[31].

ومن النص السابق يمكن أن يستخلص تعليمات عبد المؤمن في علاج ظاهرة استغلال الرقاصين للرعية:

أولا: القضاء على العادات السيئة وذلك باختيار أهل الثقة ممن يشغلون هذه الوظيفة.

ثانيا: تزويدهم بما يلزمهم من الطعام حتى لا يتطفلوا على السكان في طعامهم.

ثالثا: تعيين فترة زمنية محددة في توصيل الرسائل حتى لا يجد أحد من الرقاصين فرصة في الإقامة عند احد من الناس.

رابعا: تحذير وتخويف كل من يحاول مخالفة أوامر الخليفة.

خاتمة:

لقد أمدتنا المصادر التاريخية بنصوص وإشارات تفصح عن وجود خطة صاحب الخبر والعيون والجواسيس، وبخاصة في الحروب والمعارك ، وعرفت هذه الخطة بشكل واضح منذ العصر الفاطمي وذلك لكثرة خصومهم في بلاد المغرب على المستوى الداخلي والخارجي، وعملهم بأسلوب الجوسسة للكشف عن مناوئهم في إطار الصراع المذهبي.

أما في العصر المرابطي فإن الجوسسة اقتصرت من خلال الإشارات المصدرية اقتصرت على التجسس على الأعداء وبخاصة عند دخولهم الأندلس، أما عن الموحدين فإن نظام الجوسسة عرف تطورا أكثر بتزويدها بخطة أخرى عرفت بالرقاصة ولعلها هي صاحب البريد الذي كان ينقل ما جمع من الأخبار إلى الولاة والأمراء.

الهوامش:

1 -الخشني: محمد بن حارث بن أسد القيرواني ، قضاة قرطبة، الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966، ص 301.

2 - القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، المصدر السابق، ص79.

3 - المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق محمد الشيال و محمد حلمي محمد أحمد، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، د ت، ط 1، ج 1، ص99.

4 - الجوذري: أبو منصور العزيزي، سيرة الأستاذ جوذر، تحقيق محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيري، دار الفكر العربي، لبنان، ومطبعة الاعتماد بمصر د ت، 0ص123.

5 - ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار المغرب والأندلس، تحقيق ج س كولان ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت ط3، دت، ج 1، ص 162.

6 - المقرزي، اتعاظ الحنفا، المصدر السابق، ج 2، ص 102.

7 - الهروي: علي بن أبي بكر، التذكرة الهروية في الحيل الحربية، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد ، مص، د ت، ص14.

8 - المقري: أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت 1968م ،ج 4، ص 364.. السلاوي:شهاب الدين أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري الدرعي الجعفري ،الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى،دار الكتاب ، الدار البيضاء، دت، د ط، ج2، ص 45.

9 - المراكشي :عبد الواحد بن علي التميمي ،المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا -بيروت، ط1، 1426هـ /2006 م،ص 75.

10 - لسان الدين بن الخطيب، ، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تصحيح البشير الفورتي، مطبعة التقدم الإسلامية ، تونس، دت، د ط، ص63.

11 - ابن أبي زرع: الفاسي أبو الحسن علي بن عبد الله ،الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص 147.

12 - نفسه، ص 147

13 - حسين مؤنس، من وثائق المرابطين، الوثيقة الأولى الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد 1991م، ص 39.

14 - النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 1423هـ، ط1، ج 24، ص 272.

15 - الطرطوشي: أبو بكر محمد بن محمد ابن الوليد الفهري المالكي ، سراج الملوك، المطبوعات العربية ، مصر ، 1289هـ (1872م)، ص 181.

16 - نفس المصدر، ص 181.

17 - حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 39.

18 - نفس المرجع، على الهامش، ص 39.، لكن لم يشر إلى المصدر الذي اعتمد عليه. ولم أعثر في المصادر ما يؤكد ذلك.

19 - ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، قسم الموحدين، ص178.

20 - نفس المصدر السابق، 178.

21 - نفس المصدر، ص 216.

22 -نفســــــــــــــــه ، ص 216.

23 - ابن صاحب الصلاة عبد الملك، المن بالإمامة تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1987، ط3، ص 330ـــ ابن القطان، المصدر السابق، ص 198.

24 - حسن علي حسن، المرجع السابق، ص151.

25 - ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص77.

26 - عبد الهادي التازي، تعليق على الرقاص في كتاب المن بالإمامة، ص 77.

27 - ابن القطان، المصدر السابق، ص 77 ـــ أحمد عزاوي، رسائل موحدية مجموعة جديدة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، 1416هـ/ 1995م، ط1، ص 67.

28 - ابن القطان، المصدر السابق، ص 198ـــ أحمد العزاوي، المرجع السابق، ص68.

29 نفس المصدر ص 199. - نفسه، ص 68.

30 - ابن القطان، المصدر السابق، ص 199ـــ أحمد العزاوي، المرجع السابق، ص 68.

31 - نفسه، ص 199.